لغـــداء

الكاتب الإنجليزي سومرست موم

لفتت انتباهي خلال عرض المسرحية وفي رد على تلويحها نهضت من مقعدي في وقت الاستراحة وجلست بجانبها. مضى زمن طويل منذ أن رأيتها آخر مرّة ولو لم يذكر أحد اسمها فلا أعتقد أني سوف أعرفها. قالت لي بمرح: "حسنا، لقد مضت سنوات عديدة على لقائنا الأول. أتعجب كيف يطير الوقت! لم يعد أي منّا شاباً. هل تتذكر أول مرّة رأيتك فيها؟ لقد دعوتني إلى الغداء."

هل أتذكر؟

كان ذلك قبل عشرين سنة وكنت أعيش في باريس. كانت لديّ شقة صغيرة جداً في الحي اللاتيني تطل على مقبرة وكنت أحصل على مال بالكاد يكفي لحفظ جسدي وروحي معاً. وكانت هي قد قرأت أحد كتبي وكتبت لي عنه. أجبت عنها شاكراً إيّاها وفيما بعد استلمت منها رسالة ثانية تقول إنها سوف تمر عبر باريس وتود أن تتحدث معي إلا أن وقتها محدود وأن الفرصة الوحيدة لديها ستكون في يوم الخميس القادم حيث ستقضي الصباح في لوكسمبورج وبإمكانها أن تتناول معي غداء خفيفا في مطعم فويوت بعد ذلك. هذا المطعم يتردد عليه أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسيون وكان بعيداً جداً عن إمكانياتي لدرجة انني لم أفكر أبداً في الذهاب إليه. لكني كنت أشعر بالإطراء وكنت شاباً صغيراً لم أتعلم أن أقول لا لامرأة. (يمكن أن أضيف أن القليل من الرجال يتعلمون هذا إلى أن يصبحوا كباراً جداً لكي يفعلوه مهما تكن العواقب لأي امرأة). كان معي ثمانون

فرنكاً ذهبياً يمكن أن تكفيني لبقية الشهر وأن غداءً متوسطاً ينبغي ألا يكلفني أكثر من خمسة عشر فرنكاً. وإذا ما امتنعت عن تناول القهوة في الأسبوعين القادمين فإنني سأستطيع تدبير أموري جيداً.

أجبت بأنني سوف ألتقي صديقتي بالمراسلة في مطعم فويوت يوم الخميس الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً. لم تكن شابة صغيرة كما توقعت وكان مظهرها يدل على المهابة بدلاً من الجاذبية. في الحقيقة كانت هي في الأربعين (وهي سنّ مناسبة لكنها لا تثير الهوى المفاجئ والجارف من أول نظرة) وأعطتني الانطباع بأن لديها أسناناً زائدة، بيضاء، كبيرة حتى أكثر من اللازم لأي غرض عملي. كانت كثيرة الكلام لكن نظراً لأنها بدت مائلة إلى الحديث عني فقد كنت مستعداً لأن أكون مستمعاً جيداً. أصبت بالذهول حينما أحضروا لي قائمة أسعار الطعام فقد كانت أعلى بكثير مما توقعت. لكنها طمأنتني:

قالت "أنا لا آكل أي شيء أبداً على الغداء."

"أوه، لا تقولي ذلك" رددت بكرم.

"أنا لا آكل أكثر من شيء واحد. أعتقد أن الناس يأكلون بشراهة هذه الأيّام. سمكة صغيرة، فحسب. أتساءل إن كان لديهم سلامون."

"حسناً، كان الموسم مبكراً لسمك السلامون ولم يكن مسجلاً في قائمة الطعام". لكنني

استفسرت من النادل إن كان يوجد أي منه عندهم. نعم، سمكة سلامون جميلة وصلت توا، إنها أول سمكة لديهم. طلبتها لضيفتي. سألها النادل فيما إذا ترغب في تناول شيء بينما يتم طهي السمكة.
أجابت "لا". "أنا لا آكل أكثر من شيء واحد، إلا إذا كان لديكم كافيار صغير فأنا لا أمانع من تناوله."
غرق قلبي قليلاً. أعلم أنني لا أستطيع دفع قيمة الكافيار لكنني لا أستطيع أن أخبرها. على أية حال طلبت إلى النادل أن يحضر الكافيار. ولنفسي اخترت أرخص طبق في القائمة وكان شريحة لحم غنم.
قالت "أظن انه ليس من الحكمة أن تأكل لحما". "لا أعرف كيف تستطيع أن تعمل بعد تناول وجبة ثقيلة كشرائح اللحم. أنا لا أومن بملء معدتي بأكثر من اللازم." ثم جاء موضوع الشراب.
قالت "أنا لا أتناول أبدا أي شيء على الغداء."

"وأنا كذلك" أجبت بسرعة.

واصلت "ما عدا النبيذ الأبيض" كما لو أنني لم أتكلم.

"أنواع النبيذ الفرنسي الأبيض خفيفة جداً. إنها رائعة للهضم."
سألتها "ماذا تودين؟" وأنا مازلت سخيّا لكن ليس إلى درجة الإسراف.
قابلتني بومضة زاهية وودود من أسنانها البيضاء.
" -طبيبي لن يسمح لي بأن أشرب أي شيء سوى الشمبانيا."
أتخيل أن لوني أصبح شاحبا.

طلبتُ نصف زجاجة. ذكرت لها بصورة عابرة أن طبيبي قد منعني من احتساء الشمبانيا إطلاقا."
"إذاً ماذا ستشرب؟
".
"ماء."
أكلت الكافيار وأعقبته بالسلامون. كانت تتحدث بمرح عن الفن والأدب والموسيقى لكنني كنت أتساءل عن المبلغ الذي ستصل إليه الفاتورة. وحينما وصلت شريحة اللحم أخذت المرأة على عاتقها مهمة جادّة.

"أرى انك درجت على عادة تناول غداء ثقيل. أنا متأكدة ان هذا خطأ. لماذا لا تتبع نهجي وتأكل شيئاً واحداً فقط؟ بالتأكيد سوف تشعر بأنك أفضل بكثير."
قلت "سوف آكل شيئا واحدا" مع مجيء النادل مرة أخرى بقائمة الأسعار.
أبعدته جانباً بحركة رشيقة.
"لا، لا أنا لا آكل أبداً أي شيء على الغداء. فقط قضمة. لا أريد أكثر من ذلك، وأنا آكل

هذه القضمة كعذر للمحادثة أكثر من أي شيء آخر. لا أستطيع أن أتناول أي شيء إضافي إذا لم يكن لديهم بعض من نباتات الهليون الضخم. سأكون آسفة وأنا أغادر باريس من دون تناول بعض منها."
سقط قلبي في القاع. لقد رأيت تلك النباتات في الدكاكين وأعرف انها باهظة الثمن. وفمي غالباً ما يغمره الماء لدى رؤيتها.
سألت النادل "السيدة تريد أن تعرف إن كان لديكم أي من الهليونات الضخمة."
حاولت بكل ما أستطيع أن أجعله يقول لا. لكن ابتسامة ارتسمت على وجهه العريض الذي يشبه وجه قسيس ثم أكّد لي أن لديهم بعضاً من الهليونات الكبيرة جداً، والمدهشة، والرقيقة، التي تجعل منها أعجوبة.
"لست جائعة جدا" تنهدت ضيفتي. "لكن إذا كنت مصراً فأنا لن أمانع من تناول بعض الهليونات."
طلبتها لها.

"ألن تأكل أيّاً منها؟."

"لا، أنا لم آكل هليونات أبداً."

"أعلم أن هناك أشخاصا لا يحبونها. الحقيقة انك تفسد ذوقك بكل اللحم الذي تأكله."
انتظرنا لكي يتم طهي الهليونات. الخوف هيمن على قلبي. السؤال الآن ليس كم من المال سيتبقى لديّ لبقية الشهر لكن فيما إذا كان بحوزتي نقود كافية لدفع الفاتورة. سيكون الأمر محرجاً إذا وجدت انها ناقصة عشرة فرنكات وأرغم على الاستلاف من ضيفتي. لا أستطيع أن أجعل نفسي تفعل ذلك. أعرف المبلغ الذي عندي بالضبط وإذا ما جاءت الفاتورة بأكثر مما أقدره فانني سوف أضع يدي في جيبي وأصرخ بصورة دراماتيكية وأقول إنها سُرقت. بالطبع سيكون الأمر صعباً إذا لم يكن لديها أيضاً نقود كافية. حينها سيكون الحل الوحيد هو ترك ساعتي والقول إنني سأعود للدفع لاحقاً.
جيء بالهليونات. كانت هائلة الحجم وريّانة ومسيّلة للعاب. رائحة الزبدة الذائبة دغدغت مناخيري راقبت المرأة المهجورة وهي تدفعها اسفل حنجرتها بكميات كبيرة تثير الشهية وبطريقتي المؤدبة تناقشت معها حول حالة الدراما في دول البلقان. وأخيراً انتهت من الأكل.
سألتها "هل تريدين قهوة ؟."
أجابت "نعم، فقط آيسكريم وقهوة."
أصبحت لا أكترث الآن، لذلك طلبت القهوة لنفسي، وآيسكريم وقهوة لها.
قالت وهي تتناول الآيسكريم "أتعرف، هناك شيء واحد أومن به دائما". ينبغي ان ينهي المرء وجبته دائما وهو يشعر بأنه يستطيع أن يأكل أكثر قليلا.
سألتها بضعف "أمازلت جائعة؟."
"أوه،لا.أنا لست جائعة، كما ترى أنا لا آكل غداء. أتناول كوباً من القهوة في الصباح ثم العشاء. لا آكل أكثر من شيء واحد على الغداء. لكني كنت أتحدث عنك" "اوه، حسنا."

ثم حدث شيء فظيع. بينما كنّا ننتظر القهوة جاء رئيس النذُل بابتسامة متزلفة على وجهه الكاذب، وهو يحمل سلّة كبيرة مليئة بالخوخ الضخم، الذي يكتسي بخجل فتاة بريئة ونغمة ثرية للمنظر الطبيعي الإيطالي. لكن هذا بالتأكيد ليس موسم الخوخ. الله وحده يعلم كم ثمنه.
علمت أيضاً، بعد قليل، ان ضيفتي وهي مستمرة في حديثها التقطت واحدة منها وهي شاردة الذهن.
"كما تعرف، لقد ملأت معدتك بالكثير من اللحم" ـ الشريحة الصغيرة الشقية التي تناولتها- "ولا تستطيع أن تأكل أي شيء آخر. لكنني تناولت أكلاً خفيفاً وسوف أستمتع بخوخة."
جاءت الفاتورة وحينما دفعتها وجدت أن ما تبقى لديّ لا يكفي لإكرامية معقولة. استقرت عيناها برهة على الثلاثة الفرنكات التي تركتها للنادل واستنتجت انها ظنت بأني بخيل. لكن عندما سرت خارج المطعم كان أمامي الشهر بأكمله وليس في جيبي حتى بنس واحد.
قالت ونحن نتصافح بالأيدي" "اتبع النهج الذي أسير عليه". "ولا تأكل أبداً أكثر من شيء واحد على الغداء."
رددت "سوف أعمل أفضل من ذلك". "لن آكل شيئاً على العشاء الليلة."
صاحت جزلة وهي تقفز إلى سيارة الأجرة "أنت هزلي" . "أنت هزلي جدا."
لكنني أخذت بثأري أخيراً. أنا لا أعتقد أنني إنسان حقود لكن حين تضع الإلهة غير الفانية يدها في الموضوع فانه من المغتفر أن تراقب النتيجة بعين الرضا، فاليوم هذه المرأة تزن 21 حجرا

..(الحجر: وحدة وزن انجليزية تساوي 14 رطلا -1)